

البدع الشائعة

في الجنائز والمآتم

في الجنائز والمآتم وزيارة المقابر

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت

مفتي العثم الدينية والعربية بالأزهر الشريف

« هذا حكم الله ورسوله وأئمة السلف الصالح في ما تركه عامة الشعب
انصرى من المأكر والبدع في تشييع الجنائز وإقامة المناجات وزيارة المقابر،
لم يجئنا به قوم يمكن أن يشك في بطلانه بأصول الدين أو في أمانيه عبد الخلق
أو في صحة تأويله للصواب، وإنما جاء به قدام لا يرقى لرب إلى فضله
وكفايته، وله من مكانته ومصبه ما يحلما على الاطمئنان في رأيه ومشورته .
ولعمري أي عذر يلتمس بعد ذلك لأول الأمر إذا ذهبوا أو تهاوبوا
في تطبيق لتواين التمامة ومن التشريعات اللازمة ، لتفصاه على تلك
المأكر التي تؤم السمع والبصر ، وتجمع الذوق وتؤذى الخلق وتصورنا أمام
الأجس شعبي منحلًا في تدينه ومداركه وعاداته وتقاليده . »
لمحمر

اعتاد كثير من الناس في الجنائز والمآتم أموراً يمجتها الشرع ويأباهها الخلق الكريم
وقد تمسكوا بها حتى ظن كثير من العامة والأجانب الذين لا يفهمون حقيقة الإسلام أنها
من الشؤون التي يطلبها الشرع ويقرها الدين، وبذلك أُلصق بالدين ما ليس منه وصوّر أمام
الناقدين بصور تسعفهم بأشد وجوه النقد والتجريح .

وإنه ليسرنا جداً أن تعمل وزارة الشؤون الاجتماعية من جانبها على تطهير البلاد من هذه
العادات السيئة فتريح الناس من مساوئها وتفصل عنهم أدرانها ؛ وتزيل في الوقت نفسه
عن الدين وصحة أُلصقها به جهل العامة ومسايرة الخاطئة لهم فيما يحدثون من بدع وعادات
سيئة .

وإلى الناس حكم الشرع في أشهر ما أنفنا رؤيته في الجنائز والمآتم من حين الوفاة إلى
آخر ما هو معروف بأيام التعزية .

(١) ينبغي أن يعلم أولاً أن الغرض من تشييع الجنازة هو الاعتناظ بالموت واستحضار جلاله فيقضى على غطرسة النفوس الجالحة التي يأخذها الغرور فتبتك الحرمات وتعتب بالحقوق وتستبين بالحياة . وقد شرع تشييع الجنازة وحشت عليه الشريعة تحقيقاً لهذه الحكمة السامية . ومما جاء في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم "عودوا المرضى واتبعوا الجنازات تذكروا الآخرة" وفي تذكور الآخرة التي يجرد فيها كل امرئ ما قدمت يدها ما يقتنع من النفوس طغيانها ويردها إلى قسطها العادل في هذه الحياة . وتخصيلاً لهذه الحكمة على "وجه الأبلغ طلب الشارع الصمت من المشيعين حتى تخفص العظة وتمكن الذكرى من القلوب . وقد صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم "إن الله يحب الصمت عند ثلاث: عند تلاوة القرآن وعند الزحف وعند الجنازة" .

(٢) وبهد الأصل حرم رفع الصوت في تشييع الجنازة ولو بالذكر وقراءة القرآن وطلب الاستغفار لليت . ومما جاء في هذا أن أحد المشيعين لجنازة على عهد أصحاب رسول الله رفع صوته بقوله : استغفروا لليت ، فقال له الأصحاب : لا يغفر الله لك . وإذا كان طلب الاستغفار وهو دعاء من الحاضرين لليت وعبادة في غير هذا الموطن بهذه المثابة من الإنكار واستحقاق صاحبه المقمت والتشيع والدعاء عليه إذا صدر منه في تشييع الجنازة لما باننا بالصياح والندب والنياحة وعزف الموسيقى ذات النغمات المحزنة ؟

إن هذه المظاهر فضلاً على أنها تحول دون التذكر والاعتناظ المقصودين من تشييع الجنازة تثير الأحزان وتبعث الأسى وتخلج القلوب وتأخذ بها إلى غير جهة العظة والاعتبار وتصرفها عن جميل الصبر ومظاهر الرضا بقضاء الله .

وهن هنا أجمع الفقهاء على حرمة هذه الظواهر تحريماً قاطعاً لا شك فيه ، وقد ورد فيها من التحذير والوعيد ما يجدر بالمسلم أن يرتدع به . ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم : "الناثقة إذا لم تنب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب" والمراد بهذا التصور ردع الفرس عن ملائسة هذه الظواهر . وقوله صلى الله عليه وسلم : "ليس منا من ضرب الخلدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية" . وقد جاء صريح التبري من فاعل هذه الظواهر في حديث أبي موسى الأشعري . "أنا بريء ممن برئ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم برئ من الصالقة والحائفة والشاقفة" والصالقة هي التي ترفع صوتها بالندب والنياح، والحائفة هي التي تحمل رأسها عند المصيبة، والشاقفة هي التي تشق ثوبها زيادة في الجلع .

(٣) وحسناً فعل المشرع المصري إذ اهتم بالأمر وقدر ما في العويل والواولة من تكدير راحة السكان، فنص في قانون العقوبات على معاقبة من يقع منه في الجنازات عويل

أولولة، فإن تكدير راحة السكان جهة أخرى بالاعمال السلام ويحرص جد الحرص على وقاية المجتمع منها . وقد كان من سياسة عمر بن الخطاب في مثل هذا أنه سمع ذات مرة بكاء فدخل مكان الصوت بدرته اليمونة ومال على الحاضرين ضربا حتى بلغ النائمة فصر بها حتى سقط نمارها وقال لمن معه : "اضرب فإنها نائمة ولا حرمة لها إنها لا تبكي لشجوكم . إنها تهريق دموعها على أخذ دراهمكم وإنها تؤذى موتاكم في قبورهم وأحياءكم في دورهم . إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به وتأمروا بالخير وقد نهى الله عنه" .

وإذا كنا نلتمس من ظواهر المآتم والجنائز الشائمة عندنا هذه الآثار السيئة من الجزع ومضاعفة الحزن وتكدير صفو الحى وإضاعة المال في غير نافع، وكلها عوامل تفتت في عضد الأمة وتحول بينها وبين الحياة الحسنة الشريفة ، فجدد بالمشروع المدعى وهو أقرب المشرعين صلة بالروح الدينية الخلقية أن يتأسى بعمر بن الخطاب ويرعى هذه الشؤون بتشريع حازم حكيم عملا بمبادئ الإسلام وتحقيقا لمظاهر الخلق الكريم ، وكذلك جدير بسلطة التنفيذ المصرية وهى أقرب سلطات التنفيذ صلة بالروح الدينية الخلقية أن تهيمن هيمنة جادة صادقة على تنفيذ ما يتخذة المشروع وقاية للمجتمع والأفراد من شر هذه الظواهر .

(٤) وإذا كانت هذه الآثار السيئة تلائم خروج النساء في تشييع الجنائز - فضلا على ما يتخدرن إليه من التوغل في مظاهر الملح من شق الثياب واختلاطهن بالرجال مكشوفات الرؤوس المنفوشة والوجوه المصبوغة بالأسود والأزرق - فإنه مما لا ريب فيه أن خروجهن في تشييع الجنائز يكون من أشد المحرمات وأسوأ العادات . وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم أرجعهن عن تشييع الجنائز وقال لمن : "ارجعن ما زورات غير ما جورات" وهذا من أبلغ أنواع الزجر الدال على الحرمة والإنكار .

(٥) أما إقامة المآتم ليلة أو أكثر فقد أجمع العلماء على حرمة إذا كان على الهيئة التي نعهدنا اليوم من إقامة المآتم التي تتطلب نفقات باهظة في غير غرض صحيح ، وتشتد الحرمة إذا كان في الورثة قاصر يحمل نصيبا من هذه النفقات أو كان أهل الميت في حاجة إلى ما ينفق في هذا السبيل، وتتضاعف شدة الحرمة إذا كان الحصول على هذه الأموال من طريق الربا كما يفعله بعض الناس التماسا للشهرة والرياء .

وقد كانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصرف الناس بعد دفن الميت إلى مصالحهم وأن يعزى أهل الميت حين المقابلة في الثلاثة الأيام الأولى؛ ولم يثبت عن مسلمي الصدر الأول أنهم جلسوا في مكان معين بقصد أن يذهب الناس إلى تعزيتهم في موتاهم . ومن المبادئ التي وضعها الإسلام ولا تختلف مصلحتها بمرور الأيام ولا يختلف الأمكنة والاشخاص قول الله تعالى "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ"

الآنحرف) وقد انعقد لإجماع الفقهاء على كراهة ذلك الاجتماع وفيه قال الإمام الشافعي "وأكره المسأتم وهو الجماعة وإن لم يكن لهم بكاء فإن ذلك يجدد الحزن ويكلف المؤنة".

(٦) تأتي بعد هذا وذلك تلك العادة السيئة التي ينفر منها الأدب ويندى لها الجبين عادة الخروج إلى المقابر والمييت فيها. ولنا بحاجة إلى شرح ظواهرها السيئة التي تؤذى الخلق المكريم وترج بالأعراض إلى سوق المهانة والابتذال. وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم لمن زارت القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج. وقد سبق أن محافظة القاهرة أعلنت حظر المييت في المقابر تلافياً لهذه المحازى الفاضحة ولكن لا ندرى ماذا وقف أمام التنفيذ والرعاية هذا الإعلان الكريم؟

نعم إن زيارة المقابر مشروعة، ولكن لها أدبا يجب أن يرعى، وحرمة ينبغي أن يحافظ عليها، فليس المقصود منها بأكثر من الدعاء للميت والاعتاظ بالموتى ورؤية المصير الأخير.

وهذا في زيارة الرجال. أما زيارة النساء فمن الفقهاء من حرمها مطلقاً للشابة والمجوز ومنهم من أباحها للمجوز. وقال ابن الحاج من كبار علماء المالكية ومقدميهم: إن هذا الخلاف في نساء ذلك الزمان وكن على ما يعلم من عاداتهن في الاتباع. وأما خروجهن في هذا الزمان فمعاذ الله أن يقول أحد من العلماء أو من له مروءة أو غيره في الدين يجوز ذلك. فان وقعت ضرورة للخروج فليكن ذلك على أدب التمرع من السترا على ما يعلم من عاداتهن الذميمة في هذا الزمان.

(٧) أما الصدقات فهي من البر بشرط أن تقع في موضع الحاجة، وألا تكون على الوجه الذي حظره الشارع، ومن العادات السيئة التي درج الناس عليها في ذلك ذبح الحيوانات عند خروج الجنائز وعند وصولها إلى القبر ففيها الرياء المحبط لثواب الصدقة، وفيها اشتداد الزحام بين المتسولين وتهاوتهم على الأخذ منها إلى درجة أن يمزق بعضهم ثياب بعض وأن تنشب بينهم المعارك التي تسيل فيها الدماء. وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الذبح عند القبر بقوله: "لا عقر في الإسلام". والسنة في الصدقة الإسرار وتونحي المحتاجين. وذلك أرحم للخير وأدعى إلى القبول.

(٨) أما مسافة التشيع فلم يرد في الشرع ما يحددها، وهي موكولة إلى قدرة المشيع على مواصلة السير إلى القبر ومبلغ حديده على معنى الاتماظ والعبرة، فلا تدخل تحت تشريع ولا يتناولها تفتين.

(٩) أما أمثل الطرق التي تكفل لإرشاد الجمهور إلى أحكام دينهم وتحول بينهم وبين ارتكاب ما يخالف، فهي طريقة الإسلام التي اتخذها أساساً في تنفيذ الأحكام واعتمد عليها الخلفاء الراشدون في سياسة الأمة، وهي العمل على تركيز الوازع الديني في النفوس أولاً، وذلك

بالتحذيرات والتهديدات الأخروية التي تنص على غضب الله ومقته للخالفين المعرضين عن أحكام الدين . وهذا طبعاً من عمل الوعاظ والخطباء والمرشدين ، والعمل ثانياً على تركيز وازع السلطان في القوازين وتنفيذها . وإن في التعزير الذي شرعه الإسلام عند مخالفة الأوامر وارتكاب المحظورات مجالا واسعا لمن أراد أن يعمل على وقاية أمته شرور الأخلاق وسوء المظاهر . وأقل درجاته التأنيب وقد يصل الى القتل وبينهما السجن بدرجاته المختلفة والغرامة المالية بمقاديرها المتفاوتة .

(١٠) وحذا لو خطت وزارة الشؤون الاجتماعية في هذا السبيل خطوة حاسمة تذكر لمصالحى وزيرها بالفخر في سجل الأعمال الصالحة النافعة ، لا فيما يختص بالمقابر والموتى فقط بل في جميع نواحي الحياة التي أصبحت تعج بشار الشكوى والفوضى من فساد الأخلاق ورداءة المجتمعات . فتلك حفلات الزار تقام في القرى والأمصار وتنفق عليها النفقات الطائلة في غير جدوى ولا منفعة ، وتحدث ما يكدر صفو الهدوء على الجمهور ويختلط فيها الرجال بالنساء على نظام تنفر منه الإنسانية الفاضلة .

وتلك المرأة المصرية المسلمة تخرج بأصباغها المختلفة ونهودها العارية تغرى الشبان بالفتنة وتفتح على نفسها وأسرتها أبواب الريبة التي جعلت الشبان في منأى عن الزواج والمسكنة الطيبة الشريفة الى المخادنة والمساحفة الوضيعة ، الى غير ذلك مما تفتتح عليه العيون ويتطلب هم المصلحين لتلافيه .

ونسأل الله أن يوفق محب الخير للخير ، وأن يهدينا جميعا الى صراطه المستقيم .

محمود شلتوت

من روائع شوقي

لن تساهوا في بنيكم أبدا	ياحماة العاقل أنصار اليتيم
وجريتم عن حنان وندى	نعمة الدنيا وموعود النعيم
حسب الطنل فما تدرى غداً	ماله في الناس من شأن عظيم
ربما يُنحج مهتد فرقدا	ينقذ الناس من الجهل البهيم
كم يتيم ملاء الدنيا هدى	كنبي الرحمة الهادى الحكيم
ولقيط قد كساها سؤدا	كلقيط اليم مولانا الكلم